خاتمة

من الدال جداً أن نشير في خاتمة هذا الكتاب إلى أن النقد التفكيكي قد شهد مساراً تاريخياً مطولاً، يمتد في العمق إلى رحيق الفلسفات المثالية والمادية منذ عهد أفلاطون وأرسطو إلى مسار الفلسفات الحديثة في ثوبها النيتشوي والهيدجري، وكذا فلسفة جون لوك وهوبز، فهذه الفلسفات جميعاً كانت قد مجدت سلطة الخارج والذات معاً في القول والتقول على مصدر الحقيقة والمعرفة الإنسانية. يضاف إلى ذلك أن نقاد التفكيكية قد تأثروا في تشييدهم لمسرح النقد التفكيكي بمقولات الفلسفة الظواهرية لرائدها إدموند هوسرل. ولم يكن النقد التفكيكي بمنأى عن تلك المؤثرات النفسية التي أسس لبناتها سيجموند فرويد. هذا وقد ارتوى النقد التفكيكي من ينابيع اللسانيات الحديثة لفرديناند دي سوسير، فثمة مبادئ مشتركة بين سوسير والنقد التفكيكي، لاسيما قضية الثنائيات وسلطة الغياب ومبدأ الاعتباطية.

لقد ثارت التفكيكية على سلطة العقل تاركة المجال فسيحاً لسلطة الذات في القول والتقول على جماليات النصوص الأدبية، إيمانا من مؤسسي التفكيك أن السلطة العقلية لا يمكنها النفاذ بعمق إلى مختلف القيم الجمالية للنصوص الأدبية. ولما كانت البنيوية قد مجدت سلطة العقل نجد التفكيكية قد ثارت على هذا التمجيد محولة بذلك البنيوية إلى مجرد مراهقة نقدية وفكرية ليس إلا، وفي سياق هذه المنطلقات عمل دعاة التفكيك على التأسيس لاستراتيجية النقد التفكيكي، حيث قدموا مقولاتهم النظرية معلنين في الوقت نفسه عن موت المؤلف بمجرد الانتهاء من

الكتابة وأعطوا الأولوية لسلطة القارئ أو المتلقي في انتاج النص وصياغته من جديد، وذلك عن طريق إطلاق العنان للانهائية الدلالة، ويلعب الاختلاف دورا أساسياً في هذا الإشعاع الدلالي اللامنتهي، كما اهتم دعاة التفكيك بمقولة التناص لما تشغله من أهمية في الكشف عن مختلف الأبعاد المعرفية للنصوص الأدبية.

وإذا ما تأملنا هذه المقولات النظرية، ـ **وإن كانت تمثل ردة فعل على البنيوية** ـ إلا أنها لا تعدو أن تكون مجرد اجترار لرحيق البنيوية وما أعقبها من موضات نقدية أخرى، فالمؤلف مثلاً مات مع البنيوية والسيميائية والأسلوبية ليعلن موته النهائي مع دعاة التفكيك، يضاف إلى ذلك أن المبادئ التي قامت عليها التفكيكية تتصف بالغموض وهي مشتتة تنتظر طابعها المنهجي المنظم.

إن التفكيكية ليست منهجاً نقدياً ولا هي تحليلاً نقدياً، إذ ليس ثمة قواعد أو مبادئ واضحة اتفق عليها مؤسسو التفكيك بالوضع أو الاصطلاح، فما وجد من مبادئ أو مقولات لا تعدو أن يكون مجرد أفكار مبثوثة هنا وهناك. هذا ناهيك عن تعدد مصطلحات التفكيكية وهو ما أدى إلى غموضها أكثر عند القراء. والتفكيكية في النهاية لا تعدو أن تكون شطحة من شطحات النقد السيميائي ليس إلا.

وإذا ما ألقينا نظرة خاطفة على إشكالات النقد التفكيكي، فإن تصريحات النقاد الغربيين بأزمة التفكيك ـ لاسيما أقطابه المؤسسين ـ تقف شاهداً على ضحالة النقد التفكيكي وعدم صلاحيته في النبش عن جماليات النصوص، وقد تكون التفكيكية مشروعاً نقدياً مستقبلياً، إذا عمل مستخدموها على صياغة مبادئها صياغة جديدة تراعي الخصوصية الجمالية لعوالم الشعرية.

إن القول بعدم صلاحية النقد التفكيكي لا يعني في النهاية الإعراض عنه لأن التفكيكية مثلها مثل المناهج السابقة عليها، فليس ثمة منهج نقدي يمكننا أن نضفي عليه صفة الموصوف المنهجي الكامل والتام مادام النص الأدبي يتطور باستمرار، ومادامت جماليات النصوص محكومة بفلسفة الهروب إلى الأمام، فكلما يظهر شكل شعري جديد إلا ويظهر معه شكله النقدي الجديد، فكأننا أمام لعبة التجلي والخفاء لا الخفاء والتجلي، ويبقى التصور النظري للتفكيكية هو أهم شيء يجب النظر إليه وذلك عن طريق تطويره وفقاً لاستراتيجيات البنى النصية الجديدة.

تلكم هي أهم الخلاصات والنتائج التي توصلنا إليها من خلال مداعبتنا الحرة في سماء التفكيك بآفاقه الفسيحة، فكان عملنا ماثلاً في أفكار محفوفة بالحجارة حيناً وبالأشواك حيناً آخر، وهو دأب افترضته رغبة ملحة في التطفل على آليات النقد التفكيكي، من خلال التوق إلى أهراماته الجمالية والمعرفية وما ذلك سوى اجتهاد محكوم عليه بالفشل سلفاً؛ لأن التعامل مع النصوص الأدبية والتقول عليها تقولاً نقدياً دأب من شأنه أن يخضع النص الأدبي إلى جملة من المعادلات والأحكام النسبية.

ويبقى هذا الكتاب حلقة في سلسلة طويلة نأمل إثراءها بحلقات أخرى من الباحثين المهتمين بالنقد الأدبي في صورته الحداثية المتطلعة إلى مستقبل نقدي واعد.